وتصطرب الحياة بالمهلهل بعد ذلك ، وتشهده صحرا. نجد مرة مع قومه فى طريقهم إلى العراق فراراً من البكريين الذين ظلوا يتعقبونهم من منزل إلى منزل حتى أبعدوهم بعيداً نحو السرق ، وتشهده مرة أخرى مع أهله وحدهم فى طريقهم إلى اليمن بعد أن حلف وراءه قبيلته فى طريقها نحو العراق ، ثم تشهده للمرة الأخيرة وهو يغادر اليمن بعد أن ضاقت به الحياة هناك ـ ليعود إلى قومه بالعراق ، ولكن القدر يأبى عليه أن يتم رحلته ، فيقع فى أسر البكريين، ولكن أخوالاً له من بنى بكر يسعون ليأخذوه عندهم ، ويقبل البكريون إجلالا لسنه واحتراما لشيخوخته ، أو لعله كان إشفاقا عليهما ورحمة بهما ، ويقضى المهلهل ما بقى له من أيام عند أخواله ، ثم تكون نهاية المأساة فيودع البطل الحياة فى ظروف يختلف الرواة حولها ، فمن قائل أنه مات ، ومن قائل إنه قتل، ولكن النهاية - فى الحالتين ـ واحدة ، إنه المصير المحتوم الذى لا مفر منه أدركه بعيداً عن قومه الذين خاض بهم غمار النصر ، غريباً فى ديار أخواله البعيدة عن ديارهم .

ولم تتوقف الحرب بعد موت المهلهل ، فقد ظلت بقايا من الجمر الخامد تتوقد من حين إلى حين وأنهكت الحرب الفريقين ، فسعى بعض أشرافهما إلى الحارث بن عمرو ملك كندة ليبذل وساطته بينهما لعله يضع نهاية لها ، وتنجح وساطة الملك ، وتضع الحرب أوزارها ، وحتى يضمن الملك استمرار السلام بين الحيين أقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معد يكرب .

وهكذا انتهت حرب البسوس بعد أن استمرت ـ فيما يقال ـ أربعين سنة منذ أن اشتعلت نيرانها فى أواخر القرن الخامس حتى خمدت تماما فى أوائل القرن السادس .

والمهلهل هو عدى بن ربيعة ، وإن يكن بعض الرواة يذكرون أن اسمه امرؤ القيس ، وربما كان هذا خلطا منهم بينه وبين امرئ القيس أبى الشعر الجاهلى ، فكلاهما تنسب إليه أولية هذا الشعر مع اختلاف فى مفهوم هذه الأولية ، والمهلهل يسمى نفسه فى بعض شعره « عديا » .